

## الفصل الثالث

### جوانب البارودي

#### ١ - آثاره

١ - خلف البارودي لنا ديواناً ضخماً من الشعر ، عكف على تنقيحه وترتيبه ، ومراجعته وشرح غريبه ، والتعليق عليه قبل وفاته ، وقد قامت زوجته<sup>(١)</sup> بالإفناق على طبعه ، ولكن لم يطبع منه أول الأمر إلا جزءان انتهيا إلى أول قافية الميم .

ثم فكرت وزارة المعارف في طبعه فكلفت السيدين علي الجارم ، ومحمد شفيق معروف بشرح غريبه ، وضبطه ، وتصحيحه وقد صدر من هذه الطبعة جزءان كذلك أولهما في سنة ١٩٤٠ ، وثانيهما في سنة ١٩٤٢ ، وقد وصلا إلى قافية الكاف ولا تزال بقية شعر البارودي في حاجة إلى الإخراج والطبع . ومن المؤسف أن يتقاعس أدباء مصر عن أداء هذا الواجب لباعث الشعر العربي من جدته .

٢ - خلف البارودي كذلك مختارات من الشعر في أربعة أجزاء كبيرة اختارها من عيون الشعر العباسي لثلاثين شاعراً من أكابر الشعراء أمثال بشار ، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز ، وأبي العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، والبحترى ، وأبي تمام ، وأبي فراس ، ومهيار الديلمي ، والمتنبي ، وأبي العلاء ، والأرجاني ، والأبيوردي وغيرهم . وقد شرحها البارودي وعلق عليها . وقامت زوجته بطبعها على نفقتها بعد

(١) هي زوجته الثانية السيدة أمينة هانم ساهى تزوجها في المنى وهي كريمة يعقوب باشا ساهى أحد الوزراء والثوار العربيين فقد نفى مع من نفى إلى سيلان وأدركته المنية في خلال سنوات النفي فدفن هناك .

وفاته تخليداً لذكراه . وهذه المختارات تدل على حسن ذوق ، وبصر بجيد الشعر كما يدل تعليقه عليها على سعة اطلاع ، وغزارة مادة .

٣- ويظهر أن البارودي خلف مختارات في النثر سماها « قيد الأوابد » جمع فيها عيون الرسائل والخطب والتوقيعات . بيد أن هذه المجموعة للأسف لم تر النور حتى اليوم ، ولا تزال في حاجة إلى من يعيها إلى الحياة .

٤- هذا وللبارودي رسائل نثرية طريفة مثل تلك التي وصف فيها رحلته إلى المنفى ، ومثل مقدمة ديوانه . ولكن نثره يغلب عليه السجع والتكلف ، والغرام بالاستعارات والمحسنات ، فلم يحمره من قيوده وأغلاله كما حرر شعره . وتجد نماذج من هذا النثر في أول ديوانه .

على أن الطابع العام الذي يستخلص من آثار البارودي هو أنه الشاعر الغريد صدح وشدا وسجل له الدهر جميل الصداح وشجى النغم .

## ٢ - مذهبه الشعري

كان الشعر في أخريات عصر المماليك يلفظ أنفاسه الأخيرة فلما أفاقت مصر على فجر النهضة الشاملة تردد الشعر بين المرض والعافية فكان يصح أحياناً ويتكسر أحياناً كثيرة ، وهو في حالة الصحة لا يبلغ مبلغ القوة والجزالة<sup>(١)</sup> . كل هذا والنهضة ماضية في طريقها ، واللغة تدب فيها القوة شيئاً فشيئاً ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبديد سدف الجهل والظلام ، والصحافة تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أوصار وعوائق . ولكن الشعر ظل على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلاً بقيود ثقيلة ، يتمثل في شعر الندماء أمثال علي أبي النصر ، وعلى اللبثي . ولكن شاء الله أن يبعث من ينهضه من كيوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقي بهذه الآفات والأوصار بعيداً ، ويعيد للشعر قوته ومجده ، وكان ذلك على يد البارودي .

(١) يتمثل هذا في شعر صفوت الساعاتي وقد ترجمنا له في كتابنا « في الأدب الحديث

سلك البارودي في ثقافته الأدبية، وشحذ ملكته الشعرية الطريق الطبيعي، وذلك بحفظ الجليد من كلام العرب، واستظهار حكمهم وأمثالهم، ودراسة تاريخهم وعاداتهم، فلا عجب أن جاء مذهبه الشعري متأثراً بمذاهبهم فهو يرى « أن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماوة الفكر، فتنبث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بألوانها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينبث بألوان من الحكمة ينبليج بها الخالك، ويهتدى بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائثلقت ألفاظه، واثثلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرى، سليماً من وصمة التكلف، بريئاً من عشوة التعسف، غنياً عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجليد، فن آتاه الله منه حظاً، وكان كريم الشمائل، طاهر النفس، فقد ملك أئمة القلوب، ونال مودة النفوس، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام، وتنبية الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لذي رغبة مسرح، وارتباً<sup>(١)</sup> الصهوة التي ليس دونها لذي همة مطمع<sup>(٢)</sup> .

وتعريف البارودي للشعر غامض؛ لأنه لفه في ثوب كثيف مزخرف بالجازات والاستعارات، ولم يحدده تحديداً علمياً، وهو يعنى أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته، والخطرة الذهنية تأتي مثلاً من نظرة إلى شيء جميل، أو شيء يبعث الرثاء والأسى، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجي، وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب في الشعر وهو أنه «لمعة خيالية» تومض له إيماضاً، فتأني هذه الخطرات الخيالية غير متصلة، وغير مرتبطة بعضها ببعض في حلقة متماسكة، أو قصة مجبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتابع حوادثها، وإنما هي ومضات تتألق تالفاً، فيتضح المعنى الجزئي تمام الوضوح في بيت أو أبيات ضمن قصيدة لا تربطها وحدة فكرية<sup>(٣)</sup> .

(١) ارتباً : اعتل . (٢) مقدمة ديوان البارودي من إنشائه .

(٣) لقد ناقشنا هذا المذهب وبيننا محاسنه وما يؤخذ عليها، ودافعنا عن وجهة نظر العرب

في الشعر في كتابنا «الناطقة الذبياني» الفصل الثاني» وراجع

والشعر الجيد في رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكر » وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس والمعانى المتوغلة فى العمق ، والآراء الفلسفية ، كما نرى ذلك أحياناً عند أبى تمام والمتنبى ، وأبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعرائنا فى العصر الحاضر . والشعر — فى الحق — ليس فلسفة ولا منطقاً ، وحسب الشعر أنه ينادى القلوب ، ويهز العاطفة ، وتطرب له النفس وليس معنى ذلك أن يكون الشعر أجوف خالياً من المعانى ، وإلا كان هراء .

ويرى البارودى أن وظيفة الشعر هى « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام ، وتبنيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » . وقد ردد هذه المعانى فى شعره . بيد أن الشعر قد لا يؤدى وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ، ثم إن البارودى لم يفتن إلى كل أغراض الشعر ، وما يمكن أن يستخدم فيه ، ولكننا لسنا بصدد هذه الأبحاث الآن ، وبجسبتنا أن نقرر هنا أن البارودى فى هذا التعريف الموجز يعبر عن مذهبه الشعرى ، وقد راعاه إلى حد ما فى ديوانه ، ولم يخرج عنه إلا قليلاً . وعلى الرغم من أن البارودى كان مطبوعاً على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ، ولا يتعسف فى نظمه ، بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرأه أنه يجرى فى رفق وهواده ولين ، غير قلق ، أو مضطرب ، أو متكلف ، فإن البارودى كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكتفى ؛ ولذلك كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية . فقد روى أنه رتب ديوانه عقب عودته من المنى ، وأعاد النظر فيما قاله من القصائد ، وحذف الأبيات التى لم ترقه حتى لا يخلف للأجيال القادمة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تبين قافية فيه على خلل      كلا ؛ ولم تختلف فى وصفها الحمل  
فلا سناد ، ولا حششو ولا قلق      ولا سقوط ، ولا سهو ، ولا علل<sup>(١)</sup>

(١) السناد عيب من عيوب الشعر يطرأ على ما قبل الروى وهو خمسة أنواع : منها اختلاف الردين فى القافية مثل « عين بكسر العين ، ولجين » إذا جاءتا قافيتين فى بيتين متتالين .

لا تنكر الكاعب الحسنة منطقته ولا يعاد على قوم فيتذلل  
وكان يهتف بشعره قبل أن يخرج للناس ، ويصغى إليه لئيبين ما فيه من  
عيوب الموسيقى ، وانسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوي ،  
والقافية القلقة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، فيقول :

واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى السراي<sup>(١)</sup>  
فجاء شعره - والحق يقال - شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث  
موسيقاه ، وتماسك أبياته ، وقوافيه ، وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤه خبير  
ملهم ، حتى صار كما قال :

يزيد على الإنشاد حسناً كأنني نفثت به سحراً ، وليس به سحر  
وكان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني ، فيرق ويلطف في مقام  
الرقعة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظرًا جميلًا ، أو مجلس أنس  
وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ويشدد أسرته حين ينشد في الحماسة والفخر  
والمديح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف ، والحرب الضروس :

إذا اشتد أورى زنده الحرب لفظه وإن رق أزرى بالعقود فريده  
إذا ما تلاه منشد في مقامة كنى القوم ترجيع الغناء نشيده  
فجاء شعره مما يلذ للإنسان أن ينشده بصوت مرتفع ، يتزم به ليطرب ،  
ويتأمل في نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كل ملساء المتون غريبة إذا أنشدت أفضت لذكر بني سعد<sup>(٢)</sup>  
أخف على الأسماع من نغم الحدا وألطف عند النفس من زمن الورد

( ١ ) في هذا المعنى قال بعض الشعراء المتقدمين :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل في تهديها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وسواها تهذى بها

وفي مثل هذا المعنى قال « بوالو Boileau » الناقد الفرنسي المشهور في كتابه « فن الشعر »

فقد قال :

Vingt fois sur le métier, remettez votre ouvrage,

Polissez-le sans cesse, et le repolissez.

( ٢ ) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليلة السعدية مرضعة النبي عليه السلام ،  
وكان بنو سعد من أفضح العرب ، ولذلك أرسل النبي إليهم كى ينشأ على الفصاحة واللحن ، ويريد  
البارودي أن شعره يذكر الناس بأفضح العرب .

وعلى الرغم من كل هذه العناية ، والتهديب والصقل ، فإن شعر البارودي لم يسلم من هتات ، بيد أنها لا تزرى به ولا تغض من شأنه . وإذا تتبعنا آثار البارودي وطبقنا عليها مذهبه الشعري بدا لنا في شخصيتين اثنتين : شخصية الشاعر المقلد وشخصية الشاعر المجدد .

### ٣ - الشاعر المقلد

#### ١ - الوقوف على الأطلال

وقف البارودي على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعنى ، والوجه والزى ، لا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة ، وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته وهل فى استطاعته أن يحاكي القدماء حتى فى وقوفهم على الأطلال والدمن ، وكان يعبر عن ذلك بأنه من رياضة القول ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف ، فلم يكن أمام البارودي أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عبرته ، استمع إليه يقول :

ألا حى من أسماء رسم المنازل      وإن هى لم ترجع بياناً لسائل  
خلاء تعففتها الروامس والتقت      عليها أهاضيب الغيوم الخوافل<sup>(١)</sup>  
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم      أرانى بها ما كان بالأمس شاغلي  
إلى أن يقول :

فيا ليت أن العهد باق وأننا      دوارج فى غفل من العيش خامل  
تمر بنا رعيان كل قبيلة      فما بمنحونا غير نظرة غافل  
صديرين لم يذهب بنا الظن مذهباً      بعيداً ، ولم يسمع لنا بطوائل<sup>(٢)</sup>  
نسير إذا ما القوم ساروا غدية      إلى كل بهم راتعات وجامل<sup>(٣)</sup>  
فأى أطلال وأى رسوم رآها البارودي فوقف عندها ؟ وأين مرت بهما رعيان

(١) تعففتها : طمسها ، والروامس : الرياح الطوامس للآثار ، والخوافل : جمع حافلة وهى السحابة الممتلئة بالمطر .

(٢) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والثأر ، والمعنى : لم نقترف إثماً .

(٣) بهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن ، والجامل : الإبل .

القبائل؟ وما هذه البهيم والجمال السائمة؟ اللهم . إنه التقليد ورياضة القول . وإظهار المقدرة على النظم في مثل هذه الأغراض التي قال فيها القدماء أساتذة البارودي .

### ب - النسيب

ونراه في النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهي تحكى الظبي في كناسه<sup>(١)</sup> ، والبدر في سمائه ، وهي مهابة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يثنى إلى آخر هذه القوالب الموروثة .

غصن بان قد أطلع الحسن فيه يبيد السحر جانساراً ووردا  
 ما هلال السماء؟ ما الظبي؟ ما الور د جنياً؟ ما الغصن إذ يتهدى  
 هي أبهى وجهاً ، وأقتل ألحا ظاً ، وأندى خدّاً ، وألين قدا

### ج - شعر الصنعة

وقد قلد البارودي شعراء الصنعة ، وعصور الضعف ، فيقول مؤرخاً في شعره كما أرخوا - ولكن هذا قليل جداً في شعره من مثل قوله يورخ عودة الخديو لإسماعيل من دار الخلافة سنة ١٢٨٩ هـ .

رجع الخديو لمصره	وأنت طلائع نصره
وتهللت بقدموه	فرحاً أسرة عصره
فلتبتهج أوطانه	بحلوله في قصره
وليشتهر تاريخه	رجع الخديو لمصره

١٢٨٩ هـ

واستعمل المحسنات البديعية أحياناً ولا سيما الطباق ، وإن لم يسرف فيها ، ولم تأت إلا عرضاً من مثل قوله :

يموت قلبي ويحيى حيرة وهدى في عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

## د - المعاني والأغراض

سار البارودي في أول أمره مقلداً للشعر القديم ، محاكياً له ، معارضاً أشهر قصائده ، متشعباً بمعانيه وأخيلته ، مترسماً أغراضه من مدح ، ووصف ، وهجاء ، ورثاء ، وعتاب وفخر . . . إلخ . وقد حاكى القدماء في أسلوبهم ، وبدواتهم ، وذكر ديارهم من مثل قوله :

يا سعد قل لي فأنت أدرى متى رِعان العقيق تَبْدُو<sup>(١)</sup>  
أشتاق نجداً وساكنيه وأين منى الغداة نجد  
وقال - مع أنه يعيش في مصر بعيداً عن نجد ، ووادى الغضا :

أين ليالينا بوادى الغضا ذاك عهد ليته ما انقضى<sup>(٢)</sup>  
كنت به من عيشتي راضياً حتى إذا ولي عدمت الرضا  
أيام لهُو وصبا كلما ذكرتها ضاق على الفضا

وهو مقلد في المعاني كما هو مقلد في الشكل والقالب ، ولا نستطيع أن نحصى معانيه القديمة لكثرتها ، ولكني سأدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله في الغزل معارضاً قصيدة أنى فراس الحمداني التي مطلعها :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر  
فيقول البارودي :

طربت وعادتني المَخِيلَةُ والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر<sup>(٣)</sup>  
كأني مخمور سرت بلسانه معتقة مما يضمن بها التَّجْرُ  
صريع هوى يلوي بي الشوق كلما تلاًلأ برق أو سرت ديم غر<sup>(٤)</sup>  
إذا مال ميزان النهار رأيتني على حسرات لا يقاومها صبر

(١) العقيق : الوادى ، وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواقع بالمدينة والطائف والبيامة ونجد ، والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعان ( بفتح فسكون ) وهو أنف يتقدم الجبل .  
(٢) انغضا : شجر ، ونخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة ، ووادى الغضا بنجد .  
(٣) الخيلة : الظن ، والمراد ذكريات الماضي ، ويلوي به : يذهب به .  
(٤) الديم : جمع ديمة وهي السحابة التي يدوم مطرها .

يقول أناس إنه السحر ضَلَّةٌ وما هي إلا نظرة دونها السحر<sup>(١)</sup>  
 ويقول مفتخراً من نفس القصيدة :  
 لهم مُعَدُّ مرفوعة ومعافل وألوية حمر وأفنية خضر  
 ونارٌ لها في كل شرق ومغرب لسدرع الظلماء ألسنة حمر  
 ويقول من الحكمة :

لعمرك ما حي وإن طال سيره يُعَدُّ طليقاً والمنون له أسر  
 وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سَفَرٌ ويتركها سفر<sup>(٢)</sup>  
 فهذه أغراض ثلاثة في قصيدة واحدة ، لم يأت فيها بجديد من المعنى ،  
 ففي الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبي نواس :  
 حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

وحاكي الأقدمين في ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة  
 في الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، وكان في البرق والغيث حياة العرب  
 القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق ، أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا ،  
 وإذا ذكر المحب محبوبته في تلك الآونة ، فكأنه يريد أن يشاركها في سرورها  
 أو تشاركه في سروره ، والسرور من الأشياء التي لا تتم إلا بالمشاركة ولا سيما  
 مع الأحباب . أما في بيئة البارودي فلا معنى للبرق ، ولا للسحب ، والنيل  
 يجري بمصر والمطر فيها ليس عماد الحياة .

وقوله « على حشرات » ؛ يعنى أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ،  
 وكأنه يتقلب على حشرات ، وما أكثر ما قال العرب في هذا المعنى ، وقديماً  
 قال النابغة :

فبت كأن العائدات فرشني لى هراساً به يُعَلَى فراشي ويُقشِب<sup>(٣)</sup>  
 وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم ، أما الفخر فقد ذكر البارودي  
 العمد المرفوعة وهو في القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو في جلب  
 الضيفان . ونراه في الحكمة يقول : إن الإنسان لا يعد طليقاً في حياته وهو في  
 أسر المتون ، وهذا مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

(١) ضلة : أى ضللاً منهم في زعمهم هذا .

(٢) السفر : جماعة المسافرين .

(٣) الهراس : الشوك . ويقشِب : يجدد .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد<sup>(١)</sup>  
 وستان ما بين البيتين ، فبيت طرفة أمّن . وأما أن الأيام منازل وأتأ فيها  
 على سفر فعنى قديم مطروق ، وقد تكرر في أقوال الزهاد والوعاظ .

#### هـ - الرثاء

ولم يرث البارودي إلا صديقاً أو قريباً . فلم يكن رثاؤه مفتعلاً أو من شعر  
 المناسبات ، وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل في رثائه كل  
 ما يحظر ببال الرائي : من تفعج ، وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما  
 وإظهار محاسن المرثى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ غيره ،  
 ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت : وإن لم يلجأ البارودي إلى الوقوف على سر  
 الحياة الأخرى ، وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقي .

وقد يأتي البارودي ببعض المعاني القديمة في قصائد الرثاء كأن يدعو الله  
 أن ينزل الغيث على قبر الميت ، وما شابه ذلك من الصيغ التقليدية المعروفة .  
 وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة تجارفة في النعوت التي يضيفها على  
 الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة ، وقلب وفي ، وبما زاد رثاءه  
 حرارة أنه قال معظمه وهو في المنى فزاد في أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه  
 التروء من الميت بنظرة أو حديث ، ويدعو هذا إلى توجيه الكلام للشامتين  
 به في نكته ومحنته ، ويظهر لهم التجلد في أحرقيات قصائده ، وأنه لا يزال  
 صلب العود ، ولا سيما إذا كان الميت من ذوى قرابته .

وإذا استعرضت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه  
 وبينهم آصرة محبة ووداد ، وتقدير ، وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق  
 وعبد الله فكري وحسين المرصفي ووجدته رثى : بنته ، وزوجه ، ورثى والده ،  
 وإن كان قد توفى وهو صبي ، ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه  
 كثير من الفخر ، وليس فيه تفعج الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير  
 من المبالغات غير المقبولة .

## و - المدح

واقصر في مدحه على ولاية مصر في عهده : إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس الثاني ، وهو في مدحه لا ينسى مصر ، وموقف الولى منها ، وما قدم لها ، أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لأخذه بالشورى والعدل ، ويستطرد إلى مدح نظام الشورى ، وأنه من تعاليم الإسلام ، وأن الأمة التي لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذي لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف . وهو في مدحه يذكر عدله وأريحيته وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفا عنه وأعادته إلى وطنه . أما إسماعيل فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر ، وبشر البلاد بعهد جديد وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استعداداه لخدمته ، وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثني على كل ممدوحيه ، وينتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل إلى آخر هذه الصفات المعروفة والمعاني المطروقة .

ولم يكن البارودى شاعراً مداحاً متكسباً بشعره ، كما درج على هذه العادة الشعراء في الأدب العربي ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده . وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء . وإنما للتعريف بمزئلته ، أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومدحيه خال من المبالغات المذمومة ، والتعوت الموهومة ، وهذا طبيعي ! لأنه لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد في عطايمهم ، وأن نفس الممدوح تسر لها ، فيغدق عليهم جزيل الهبات . ومع كل فدائح البارودى قليلة جداً - إذا قيست بشعره كله .

## ز - الفخر

وقد افتخر البارودى كما عرفت بنفسه ، وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته ، وقد أكثر من القول في هذا المعنى ، وله فيه مبالغات سخيفة ويبين فيه أنه محسود المكائنة ، وأنه فريد عصره ، وواحد دهره .

## ح - الزهد

ولعل قوله في الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره ، وهو وحيد شريد يعاني غصص الفراق والنفي ؛ وإلا فهذه النفس الطموح التي خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت وتنعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كل فما قاله في الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه ، فيتشائم من الدنيا ، ويتذكر الموت والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وبذهبت ديناهم الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يتدّد عنهم الموت مالم ولا جاههم . . . إلخ هذه المعاني التي استفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح ابن عبد القدوس وأضرابهما .

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ، ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه .

## ط - الحكمة

وقد أكثر البارودي من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة ، وقع عليها السابقون ، وصاغها البارودي صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم ، وقد ورد له كثير من الأبيات السائرة حتى صارت أمثالا كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محجب  
وقوله :

وقليلا ما يصلح المرء للجد إذا كان ساقط الأجداد  
وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سبا  
وحكمه على العموم قرينة المأخذ ، ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل على

مذهب في الحياة ، ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة للكون وإنما هي نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفة على الألسنة ، متقنة السبك .

## ٤ - الشاعر المجدد

### ١ - الوصف

على أن كل هذا لا يعنى أن شعر البارودى كله تقليد للقدماء في أغراضهم ومعانيهم وأخيلتهم ، فالبارودى قلد القدماء أولاً ثم استقلت شخصيته عنهم في كثير من المواطن ، واتضح هذه الشخصية ممثلة عصرها ، وحياة صاحبها ، فقد ذاق البارودى حلو الزمان ومره ، وارتفع في مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ، ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلاً يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، ويندب فيه حظه ، وينعى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السباب . وهو في كل هذا صادق الشعور يصف ما به على طبيعته ، فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وللبارودى تجديد ملموس في التعبير عن شعوره ، ومشاهداته ، وله معان جديدة وصور لم يسبق إليها ، فالبارودى عنى بالوصف عناية فائقة حتى أفرد له قصائد بعينها . ولقد كان الوصف من الأغراض القديمة ، ولكن كان يأتي عرضاً في ثنايا القصائد . أما البارودى فكان يصف لمجرد الوصف ، ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتدوقه للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته ، لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يجرها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودى مفتوناً بالطبيعة ، يرى في كل سطر من شعرها الخالد آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب ، وديوانه يغص بالموصوفات .

ويعد البارودي من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد في الطبيعة ، فوصف مظاهر الطبيعة كلها: الليلة العاصفة ، والريح الزفوف ، والسماء الخالية بالنجوم ، والبحر الهائج الغاضب ، والجبل والغابة ، والريف الهادئ الوادع ، والزرع النضير ، والنيل ، والساقية ، والطيور المزققة . . . إلخ .

والبارودي في وصف الطبيعة مصور ماهر ، دقيق في كل ما يتناول من وصف ، ولكنه لا يندمج مع الطبيعة ويستنطقها ، ويعيد إليها الحياة ، بل يقتصر على نقلها إلينا ملونة بشعوره ، في خطوط واضحة سريعة ، لا تعمق فيها أو طويل وقوف على المشاهدات . ومعانيه قريبة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود ، كل هذا في دقة حس ، وتدقق شعور .

وقد تميز البارودي في وصف الأشخاص ، وهذا من الموضوعات النادرة التي مهر فيها قلة من فحول الشعراء كابن الرومي ، وقد أجاد كذلك في وصف المعارك حتى كأنك تشهدها . ولم يقتصر وصفه على الطبيعة بل وصف كل ما حرك شاعريته . وصف السجن الذي عانى منه ما عانى ، ووصف القطار ووصف الأهرام وأبا الهول وفتح بذلك الطريق لمن أتى بعده كشوقي وغيره ، وهو وإن لم يتعمق في وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقي من بعده ، إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظمة في كل ما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه إليه رغبة في صلة ، أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش في صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفي على عيون الناس منها ، فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء .

وإذا كان ثمة مأخذ على موصوفات البارودي فإنها لم تتعد المحسوسات ، ولم يعن بالمعنويات ، وقد اهتم بالمرئيات خاصة .

#### ب - الشعر السياسي

ومن الأغراض القديمة التي خلغ عليها البارودي لباس الجدة ، وظهرت فيها

شخصيته واضحة جليلة ، تفصح عن نفس أبية متمردة على الظلم والطغيان محبة للعدالة والثورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسى الوطنى الذى دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيماً محبوباً ، وهو ذلك الشعر الذى ألقى به فى غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه ، ويا ليتته كف عن مثل هذا الشعر ، وهو يتجرع غصص النقي والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاعين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثورته ، وضعفت مُنتَه ، وكسرت حدته ، وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف وهزال ، ودب إلى جسمه ديبب الفناء ، أمنوا جانبه ، فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودى طموحاً يعتلج فى حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكى ، والفؤاد الأبنى ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشبهه الإنسان ويأمله يسهل نيله . وقد وقفت فى سبيل تحقيق هذا الأمل عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب . ولقد أخفق البارودى فى تحقيق ما يصبو إليه ، واعتذر عن إخفاقه : وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البسود المغيرة والحضر

ويلوح لنا أن البارودى كان بطبعه محبباً للحرية ، متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف ، ولعل للوراثة وللنشأة التى نشأ أثرأ فى هذا ، ولقد غذاها ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية فى فيافهم الواسعة ، وقد تغنوا بحروبهم ، وشجاعاتهم ، وانتصاراتهم وأنفتمهم ، وكان شعرهم سجلاً وافيةً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودى وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات فى ذهنه ، وشب مطبوعاً عليها ، يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويردها فى شعره ، ويود أن يحققها عملاً فى الحياة .

ولقد صور البارودى الفساد الذى شاع أمره فى مصر ، واضطراب أحوالها ، والفزع الذى ملأ قلوب الناس ، من استبداد إسماعيل وتوفيق ، وإرهاقهما الأمة بشتى ألوان الإرهاق ، وبتبديد مال الشعب الكادح بمنة ويسرة على مظاهر خداعة وشهوات خاصة ، فتنبأ البارودى بالثورة قبل حدوثها ، مما يدل على أن كان شديد

الصلة بزعمائها ، وأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا الفساد ، ويرموا به ، ولا بد من سبيل إلى الإصلاح . وقد عرفنا فيما سبق كيف أن البارودي كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمح في الانقلاب ، بل كان يحض على الثورة في شدة بقوة وحماسة ، ولما رأى تدخل فرنسا وإنجلترا أراد أن يتراجع ، وأخذ ينصح زعماء الثورة بالتريث حتى لا تسوء العواقب ، بيد أن التيار كان شديداً ، فلم يجد بدءاً من متابعة الثورة والسير في الشوط حتى النهاية . كان البارودي يكره الاستبداد والطغيان ، مع أنه كان في زمن ألفت الناس فيه الطغيان . استمع إليه يقول ما لم نسمعه من شاعر معاصر ، بل من كاتب من كتابنا مع طغيان حكامنا وفساد أمرهم في العهد البائد :

يأيها الظالم في ملكه      أغرك الملك الذي ينمد  
اصنع بنا ما شئت من قسوة      فالله عدل والتلاق غد

وكان من الداعين إلى الشورى ، وأن تشترك الأمة في تدبير شؤونها ، حتى لا يستبد الهوى بالحاكم فيجمع ويشتط ويفسد الأمور ، وقد مدح توفيقاً لما ولى أمور مصر لأنه كان قد وعد وهو ولى للعهد أن يجعل الشورى أساس حكمه ، وكان البارودي من الداعين إلى اليقظة ومحاسبة الحكام حتى لا يستبدوا :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمم      عجزاً سطا عليها وشدا

ولما أخفقت الثورة ، وتحاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ترك هذا الإخفاق وذيالك الخذلان في نفس البارودي مرارة ظل أثرها في لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموحدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح به      حتى إذا تم ساءتنا مصابره

ثم أخذ البارودي يذم الثورة والثوار ، ويحاول أن يتصل من تبعاتها ، وأن ما قاله كان بسبب ما دب بينهم من شحناء وأنهم غدروا به . وحاول أن يبرئ نفسه ويعلل هزيمته ، ويصف حث الثوار في أيماهم ومواقفهم ، ويتندم على زعامته ، ثم يصف فزعهم وفرارهم في المعركة . وقد اتهم البارودي بأنه يطمح في الملك ، وأنه يحاول ثل العرش وخلع توفيق فأنكر هذه التهمة بعد أن أخفقت الثورة ملتصقاً أسباباً شتى لا يشتركه مع الثوار غير طمعه في العرش .

هذا الشعر السياسي ، وهذه النفس المتوثبة الطموح ، وهذه الثورة المتأججة التي انتهت بصاحبها إلى النفي والتشريد هي من الحديد في شعر البارودي ، بل اعتبرت جديدة في الأدب العربي كله . وإن كان المتنبي قد حاول من قبل ملكاً وثار على الدنيا التي مكنت للبيد والحصيان والعلوج<sup>(١)</sup> في الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة ، وجعل يقول :

في كل أرض وطئها فُدم<sup>(٢)</sup> ترعى بعيد كأنها غنم  
فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح وبالزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ، ومحاربتة له في مطلبه ، ولكن البارودي كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، وكان يطلب العيشة الهنية في ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودي قلد المتنبي في بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه نار الثورة تقليداً ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟

وكان البارودي من أوائل الشعراء الذين تغنوا بمصر وأهلها ، وحرصوا على خيرها ونفعها . إنه يمثل بشعره في مصر روح القومية الجديدة التي سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ، ويتغنون بمآثر قومهم . وقد تمثلت هذه الروح في البارودي على غير انتظار ، وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه ، وبهذا احتل البارودي مكانة لا تدانى في الشعر الحديث ، هي مكانة المجدد ، والباعث ، ولقد كان يحز في نفسه أن يكون جزاء وطنيته وإخلاصه النفي والتشريد :

لم أقرف زلّة تقضي على بما أصبحت فيه فإذا الويل والحربُ  
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلماً وأغترب  
لقد زاده النفي حباً لوطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، ويتمثله على البعد جنة دائية القطوف ، عبقة الشذى .

(١) العلوج : جمع علج وهو الرجل من الأعاجم .

(٢) فدم : جمع فدم وهو النبي الجاهل .

### ج - الغزل

ولم يكن نسيب البارودي كله قديماً ، بل ترفع في نظريته إلى المرأة ،  
فحسبه منها نظرة ، وتمدح بعفته في حبه :

والعشق مكرومة إذا عف الفتى عما يهيم به الغوى الأصور<sup>(١)</sup>  
يقوى به قلب الجبان ويرعوى طمع الحريص ، ويخضع المتكبر  
وقد فطن أحياناً إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية  
فقال :

لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساربات الذر ما آده الحمل<sup>(٢)</sup>

### د - الهجاء

كما جدد البارودي في هجائه ، فلم يقتصر على الهجاء لخصومة بينه وبين  
شخص معين وهو ما يسمى بالهجاء الشخصي . بل أكثر من الهجاء الاجتماعي  
الذي يقصد به تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره في أبعش صورة رغبة في  
الإصلاح . وقد يتمثل هذا العيب في شخص بذاته فيهبوه الشاعر ، وليس  
الشخص مقصوداً لذاته ، وإنما المقصود هي هذه السوءة الاجتماعية ، ولن  
يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين في الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع  
الاجتماعي ، وقد بلغ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية  
ويجسمون العيوب تجسماً يحمل الشعب على الاشتمزاز منها ، والبعد عنها كما فعل  
شكسبير وموليير . ولم يلجأ البارودي إلى التمثيليات لأنه لم يسبق إليها في الأدب  
العربي ، وحسبه أنه التفت إلى هذا النوع من الهجاء ، فتراه ينمى على قومه  
شيوع النفاق فيهم وظلمهم وغدرهم ، وينمى الجشع والطمع والحرص على الحياة  
فيصعب لعنته على بخيل جشع ، ليس مقصوداً لذاته وإنما اتخذ مثلاً يمثل  
الجشعين ، وتراه يصور صخب الجيران ، وعدم مراعاتهم لسواهم في أسلوب  
تهكمي ظريف .

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد ، من الصور وهو الميل .

(٢) آده الحمل : أثقله وأعجزه .

## ٥ - منزلته

يعد البارودي باعث النهضة الشعرية في العصر الحديث ، لأنه ارتفع به فجأة إلى منزلة الفحول من الشعراء العباسيين ، وأعاد له ديباجته القوية ، وفصاحة عبارته ، ومثانة قوافيه ، وخلصه من كل تلك القيود والأغلال التي كان يرسف فيها إبان عصور الضعف من حلي لفظية ومعنوية يختنق وراءهما المعنى العث ، والفكرة المبتذلة . وجدد في كثير من أغراضه على غير مثال سبقه من معاصريه ، وضرب نماذج صالحة لمن أتى بعده من الشعراء في أبواب الوصف والشعر السياسي ، والهجاء الاجتماعي ، والرثاء ، والمديح . وأظهر أن للشاعر رسالة سامية وهي أن يعبر بإخلاص عن خلدات نفسه وتجاربه في وضوح وقوة . كما خلص الشعر من الوصمة التي لحقت به آماداً طويلة وهو أنه وسيلة للتكسب فترفع عن المديح الباطل ، والهجاء الشخصي وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام

وعلى الرغم من أن البارودي نهج نهج الأقدمين في شعرهم ، من حيث الغرض والأسلوب ، وبناء القصيدة ، فإن شخصيته كانت متميزة تمام التميز ، ومثل عصره وبيئته في وضوح وحلاء . وهو وإن لم يفد من كل الثقافات الموجودة في زمنه ومن اللغات التي عرفها فائدة كبيرة ذات أثر واضح في شعره ومذهبه ، إلا أنه عوض هذا النقص بصدق عاطفته ، ووضوح شعره وإحساسه ، ونصاعة بيانه ، وبمحاولته التجديد قدر استطاعته في معانيه وأخيلته وموضوعاته ، وله قطع في الوصف تقف جنباً إلى جنب مع كثير من الأدب العالمي . وحسبه ذلك فخراً بل إن من الإنصاف أن نقول كما قال الدكتور هيكل في مقدمة ديوانه « إن شعر البارودي كان في عصره جديداً كله ، كانت محاكاته للأقدمين جديدة وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالم جديدة ، فقد هوى الشعر العربي قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسياً » .

ولقد أثر البارودي في الشعراء الذين أتوا بعده تأثيراً كبيراً . واتخذوه نموذجاً يحتذى ، ومثلاً يتطلعون إليه ، من أمثال صبرى وحافظ إبراهيم والرافعى وأحمد نسيم وعبد الحليم المصرى ومحمد عبد المطلب وأحمد محرم وأحمد الكاشف والجارم وغيرهم وتتميز هذه المدرسة بالرصانة ، وقوة الأسلوب ، وسلامة القافية ومثانتها ، والاحتفال بالنغم الموسيقى ، واللفظ المنتقى ، ووضوح المعنى والصورة . والسير على نهج الأقدمين فى أسلوب القصيدة وأغراض الشعر إلا ما اقتضته ظروف البيئة والعصر والحوادث . ولم يفكر واحد من هؤلاء فى أن يتكس شعره فيرجع إلى عصور الضعف ويقلد شعراء البديع وحلاه ، إلا ما ندر فى شعر إسماعيل صبرى .

ولقد حاول شوقى أن يجدد ، واحتفل بالمعنى أول حياته الشعرية ، ولم يهتم بالصياغة واللفظ ، فلم يحتل بين الشعراء المنزلة التى كان يرجوها على الرغم من أنه كان شاعر الأمير ، ولم يتبواً مركز الصدارة إلا بعد أن نبى وعكف فى الأندلس على دراسة شعر القدماء وأدبهم ، فقويت عبارته ، وحسنت صياغته ، وهذا لا شك راجع إلى تأثير مدرسة البارودي وسيطرتها فى عالم الشعر . وعلى الرغم من وجود المدرسة الحديثة وانتشار أشياها ، تلك التى يتزعمها مطران والعقاد وشكرى والمازنى ، والتى تهتم بالمعنى أولاً ، ولا تحفل كثيراً بالصياغة والموسيقى ، والتى ترى القصيدة وحدة مترابطة الأجزاء ، والتى جددت فى أغراض الشعر ومعانيه وأخيلته ، فلا تزال هناك بقية من الشعراء يقتفون أثر البارودي ، ولا يزال جمهور الأدباء يطرب لشعرهم ويتطلع إليه .